أندريه شديد

الرجل – الجذع ومسافره

ترجمـة رنا ادريس

تحتل اندريه شديد (المصرية ذات الاصل اللبناني والجنسية الفرنسية) مكانا بارزا في الادب الفرنسي الحديث ، على صعيد الشعر والرواية والقصة . وقد صدر لهـا حتى اليوم روايات « اليـــوم السادس » و « الآخر » و « الناجي » و « نفرتيتي وحلم اخناتون » . ولها عدة مجموعات شعرية آخرها « حفلـة العنف » التي تعبر فيها عـن المها ازاء حرب لبنان الاخيرة .

والقصة التي نقدمها اليوم مترجمة عن الفرنسية تلامس فيها الحكاية الواقع والرمز والاسطورة معـا : روح حائرة تجد في « الآخر » الاخوي ، ولو كـــان مشوّها ومجهولا وعاجزا ، مرساها المنقذ . .

« الآداب »

كلمـا عدت من السفر ، اضع حقائبي بسرعة فــي شقتي الواسعة ، ودون ان اتيح لنفسي فرصة الانتعـاش وتغيير ثيابي أو القاء التحية على عائلتي العديدة ، اسرع نحو وسط المدينة ، ومحفظتي فوق ذراعي .

اسرع الى ملاقاة الرجل – الجذع في السيارة . في الاتوبوس ، في المترو ، متبعـة جميـع العربـات وجميع الطرق . ولم تكـن مسيرتي خالية تمامـا من القلق ، فاني اتساءل ، كلمـا عدت من السفر ، اذا كنت سألقاه ، مـرة اخـــرى .

والحـق ان الرجل – الجذع ، موجود دائما هناك ، منذ سنوات ، في المكـان نفسه ، فــــي وسط الجسر المخصص للمشاة فقط . الا في ايام البـرد الشديد او المطر . فاني اكتشفه ، في تلك الايام ، تحت القبّة التــي تكمل هذا الجسر من ناحية الجروف .

حاضر ، وحيد ، انه هناك ، لم اضعه اذا . ويهدأ تنفسي ، فأتمهل . انه هناك ، وأنا اعلم جيدا انه يفتش عني وينتظرني هـو الآخر .

وقد اتفق لي أن اميّز اطيافا حوله ، عندمـا المحـه من بعيـد . لكنهـا تختفي حال حضوري . كأنه يتوقـع مجيئي ، فيبعـد باشارة محدّثيه الذيـن سرعـان مـا كانـوا يتبعثرون .

وأشعر ، حين اجدني امامه ، اني لم اتركه قط . احييه بايماءة من رأسي وأبدأ دائما بـ : « انـي عائد من السفر » . فيرفع وجهه نحوي ، ويتخذ جوابه دائما شكل سؤال : « واين كنت ، هذه المرة ؟ » .

ليس هناك من شيء يرث اويضجرني ، فـي هذه المسيرة المتكررة غالبا ، التي تقودني اليه من بيتي (أو من جميع الاماكـن في العالم) . وليس هناك ايـة عـــادة استنفدت ابتسامةاو كلمات . ليس هناك اي ضجر يجعل ثرثراتنا تجفّ . أترى المرء يشكو عندمـا يجد من جديد النهر في مجراه نفسه ، والسفينة تحـت الجسر نفسه ، والفجـر في نهاية الليالي ؟

لقد مضت سنوات – كم من سنة ، لا استطيع القول – وتلك الاكتشافات تتأبّد . وبالرغم من ان غياباتـي تطـول وتتضاعف ، فهناك رابط اكثر فاكثر صلابة ينسج لحمة بيننا تتحدّى الزمن .

ان هناك الفة وتواطؤا يوحدان بيننا ، لكـن احـدا منـا لم يفكـر بأن يتنازل عن هذه الكلفة . لم يكن يدري شيئا عـن وجودي ، وكنت كذلك اجهل كل شيء عـــن حياته ، غير ان حياتينا كانتا تتوالجان .

– « اني عائد من السفر » .

– « واين كنت ، هذه المرة ؟ »

* * *

في البداية ، كان الشخص يقلقني . وكنت قـــد تساءلت طويـلا من الذي وضعه في هذا المكان ، اي أذرع

حميمة كانت قد نظفته ، والبسته ، ورفعته ، وحملته الى هذا المكان ؟ ومن كان يأتي ليأخذه ، ويعيده في ساعات غامضة لكي ينظفه ثانية ويغذيه ؟

ويتوقف تحقيقي بسرعة . ويتبين لي ان الفكرة بحدّ ذاتها قابلة للادانة : تضييق وتدخل في عالم لم يكن يخص سواه . لا ، كان ينبغي ان لا يعكر تفاهمنا او يفسده اي فضول . كانت الاشياء ، في جميع الاحوال، تتخذ مكانها ببساطة حوله ، بحيث ان فضولي كان يتفتت بكل طبيعية .

بعد تبادل تحياتنا الاولى ،كنت انحني نحوه اكثر قليلا :

— « كيف حالك ؟ »

— و « أنت ؟ »

كان استفهامي يطلق العنان لاستفهامه ، وكان يبدو انه لا يمتلك اي جواب . وكان يكتفي ، متلطفا ، بأن يمدّ لي سؤالي الخاص كأنه بمثابة مرآة .

كان كل شيء متناقضا بيننا .

كان طولي مترا وثمانين سنتمترا تقريبا . وكان هيكلي متينا . وكان مظهري لا يفتأ يتنوع بفضل تغيير ثيابي . كانت ملابسي واحذيتي تضيق وتتسع ، تعمق وتفتح تبعا للموضة وللفصول . كان شعري يطول او يقصر ، ينتفخ او يلصق على صدغي ،حسب قوانين الساعة .

وكانت اربعوني مرحة ، لكن كل سنة اضافية كانت تنغرس في لحمي كأنها شوكة . وفي المرآة كان وجهي يبدو لي ، فيبعض الايام ، مثقلا ، قد ارهقه الزمن . وكانت نظرتي ،في ايام اخرى ، تبدو لي وكأنها وقعت في الفخ .

أما هو، الذي لم يكن جسمه بأكمله يبلغ مترا واحدا، فاني لم اعرف له الا ثوبا واحدا .

كانت ثيابه عبارة عن قميص ذي ياقة مفتوحة ،ناصع البياض . وكانت سترته رمادية اللون ، متوازنة على كتفيه ، ولكنها مشبوكة بدبوس بعناية ، تخفي غياب الذراعين . وكان في الشتاء يضيف الى لباسه هذا سردا سميكا زيتوني اللون ووشاحا من الصوف الحريري الخشن كان يلف عنقه مرتين . وكانت تحمي رأسه في تقلبات الطقس قبعة رمادية اللون تغطي شعرا كثيفا اسود ناعما متوسط الطول .

ولعل عمره كان مشابها لعمري . كان وجهه مخدّدا لكنه سليم . وكان نوع من الازرقاق البريء يصبغ عينيه . كان هذا القسم من الجسم مركوزا بشكل عامودي على حصيرة ضاربة الى اللون النيلي .

كان كل شيء متناقضا بيننا .

ومع هذا ، فكان يستقبلني وكأنني اناه الآخر .

***

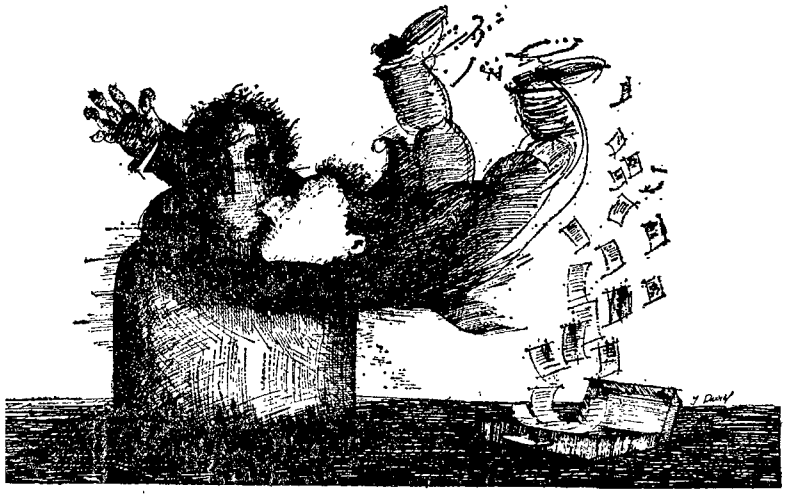

ويحدث لي ، عند الخروج من اجتماع او من غداء عمال او من سهرة ، ان يمتلكني عطش لحضوره ، متعذّر كبته . عندئذ ، اندفع نحوه وأنا على مقعد سيارتي ،أيا كانت الساعة او المسافة .

وفي بعض الاحيان ، كانت عرقلة سير تسدّ على المنافذ فلا أجد مكانا اتوقف فيه . فاذا بي ادور على نفسي ، والمركبات تلاحقني ، ذارعا الشوارع نفسها ،مغتاظا لكوني اشعر بأني اسير هذا القفص المصفح بالفولاذ .

وفجأة ، وكانت لهفتي للقائه ما تفتأ تزداد ، اخرج عن الطريق واصعد الرصيف .

ثم افتح باب السيارة ، واترجّل بسرعة واتسلق الدرجات القليلة التي تقود الى الجسر . فاذا كان الليل، يضيء كل شخصه القمر او قنديل كاز قصير .وأوسّع، في تلك اللحظات ، نظرة أوس تتيح لي ان اراه من بعيد جدا . واعود الى سيارتي مطمئنا وهادئا ، بالرغم من الزمامير العصبية التي تحيط بي .

عند منعطف افراحي وحزني ، لم يخني الرجل — الجذع قط .

***

— و « اين كنت ، هذه المرة ؟»

فكنت أصف له اسفاري . لا هدف هذه الاسفار ، وانما الناس وطوبوغرافية بعض الاماكن . كنت اهرع نحوه محملا بأحاسيس مخزّنة بلا علمي والتي لم يكن جواري يود ان يشاركني اياها ، وكنت أصبّ فيضها عند كل لقاء .

مناظر لم أكن أكاد أراها ، تنتؤ فجأة .

فجأة ، سحن مغفلةتقفز خارج الرتابة وتأخذبالضرب على زجاج ذاكرتي . ويصبح الرجل — الجذع صفحة بيضاء فتنتشر كلماتي عليها .

ويحطم اصفاؤه السدود .

ويسأل : — « وبعد ذلك ؟ »

أتخلص من كماشات الانتاج ومن عقد الميزانيات

والارقام ومن طفيان البورصة . فالسفر يغيّر الجلد .

وأرسم على الارض ، بقطعة الطبشورة ، هذه التي احتفظ بها في جيبي ، ضخامة آسيا و مثلث افريقيا وخارطة اوروبا وفرنسا واليونان وايطاليا ..

ـ « جزمة ؟ » .

فكرة الجزمة هذه هزّته ضحكا فيما هو يتأمل جسمه المجذوع .

* * *

في بعض الاحيان ، تصاب كلماتي بفقر الدم وتلحق بالجماعة الروتينية . عندئذ يهمزها بنظرة ويدفعها متيحا لي ان المح طياتها وحركاتها وان أقيس ما تحتويه من مستقبل في جذورها القديمة وما تحمله من خميرة في بذرتها وفي تواطؤاتها .

ومن العجب اني تمرّدت ، مرتين او ثلاثا على الرجل، الجذع ، منزعجا من شدّة صبره ، في هذه الطريقة التي يعكس بها الخيالات لكي يستخرج منها النسغ والنكهة .

وسألته فجأة ، دون ان افكر بقسوتي :

ـ « اي وجود هو وجودك؟ ايكون بقاؤك طوال الحياة في المكان نفسه كافيا لك ؟ »

فأجاب بصوت لاذع :

ـ « اي وجود هو وجودك ؟ ايكون التنقل كافيا لك ؟ »

وذات مساء ، وكنت ، وبالعكس تماما ، اتذمّر من اني اجبرت مرة اخرى على الذهاب قلت : « ان كل هذه الاسفار تسدّ لي الافق » .

فأجابني بعذوبة شديدة :

« لن يكون هناك افق ، لو لم يكن هناك مسافرون » .

عندما اعلم انه « هناك » ، أشعر اني استطيع الذهاب والمجيء دون خطر . اني راس في مكان ما . ان لي مكاني ، في مكان ما .

وينتظرني الرجل ـ الجذع من غير ان ينتظرني ، في مكان ما .

كنا نفترق، وكنا نلتقي من جديد ، دون ان نشعر اننا مذنبان .

كان متحررا مني كما كنت متحررا منه . غير ان كلا منا كان ضروريا للاخر . وكنت مقتنعا بأنه ، لو فصل بيننا اختفاء ما للابد ، فان شيئا ما من نخاعنا ، من طبيعتنا نفسها ، سوف يتفكك .

ترى ، ألم تكن حريتنا الا خدعة ؟

ولقد وددت غالبا ، عندما افترق عنه او القاه من جديد ، ان اضع يدي على كتفه ، لكي اشعر بحرارته وابثه حرارتي .

غير ان استحالة اجابته اياي ستبرز عاهته . عندئذ كنت اكبت هذه الحركة ، فأذهب واعود مكتفيا بتحية قصيرة جدا .

ـ « هل أنت ، سعيد ؟ » سألته يوما فجأة .

ـ « وانت ؟» .

* * *

ـ « امسك بي ، لا تدعني أرحل من جديد ، أبتهل اليك ! »

كان هذا في اصيل صيف لاهب .

وكان المسافر ، في هذه المرة ، وقد ركع بالقرب من الرجل ـ الجذع ، قد رفع الكلفة لاول مرة .

واحاط بذراعيه، وهو لا يزال على ركبتيه ، الجذع الثابت .

وقد تمكن المسافر ان يقرأ ، في تلك النظرة الهادئة وعلى تلك الشفاه نصف المغلقة ، آية رضى ، دون ان يهتز اي شيء على وجه رفيقه .

ثم اخذ الجسدان ، الرجل ـ الجذع عموديا كالوتد، والآخر أفقيا ، يهتزان في حركة دوّارة منتظمة .

وكانت المدينة تتأبد حولهما ، بضجيجها ، ورجّاتها وجمالها .

كانت المحفظة ترقد ، مفتوحة ، على قطعة الحصيرة النيليّة اللون . وكانت ريح خفية تبعثر من المحفظة اوراقا مسودّة بالارقام وبالرسوم البيانية .

كان كل شيء يجري على ما يرام .

وكان الرجل ـ الجذع ، لكي يحافظ على توازنه ، يلتصق بالارض دائرا على نفسه كأنه بريمة بطيئة ، وكان يحفر ، تدريجيا ، حفرة في البلاطة . وكان المسافر ، وقد اراح رأسه الآن على صدر الاخر ، يعوم ، متمددا في الهواء .

كان جسداهما يكوّنان زاوية قائمة ، مأخوذين بالحركة الدائرية .

معا كانا يفرزان .

ويصبح الايقاع اكثر فاكثر حيوية .

كانت الارض تتمزّق ، دون الم .

كانت تغلفهما نسمة مريحة ، ترافقهما ضجة المدينة، فيتواريان شيئا فشيئا .

* * *

كانت البلاطة مرفوعة قليلا ، وكان شيء من الرمل يلطخ الحافة ، حين التقط احد المارة في اليوم التالي ، الحقيبة بجشع ، وحملها تحت ذراعه .

وبعد قليل ، أخذ طفل يتلهى بلفّ الحصيرة حتى الحاجز ، والقى بها ، بدفعة اخيرة ، الى النهر .

طفت الحصيرة بضع دقائق ، وما لبثت ان ضاعت في اعماق الماء .

اندريه شديد